آداب Adab
مجلة كلية الآداب جامعة الخرطوم
Journal of Faculty of Arts. University of Khartoum

ISSN 0302- 8844

مجلة علمية نصف سنوية محكمة. تصدر عن كلية الآداب – جامعة الخرطوم

العدد ٤٦. يناير ٢٠٢٢م

هيئة التحرير | الهيئة الاستشارية

رئيس التحرير

أ.د. حمد النيل محمد الحسن

مدير التحرير

أ.د. أزهري مصطفى صادق علي

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. يحيى فضل طاهر
أ.د. فيروز عثمان صالح
د. سلمى عمر السيد
د. هالة صالح محمد نور

أ.د. فدوى عبد الرحمن على طه
أ.د. على عثمان محمد صالح
أ.د. جلال الدين الطيب
أ.د. رقية السيد بدر
أ.د. تاج السر حران
أ.د. مبارك حسين نجم الدين
د. يونس الأمين
د. محاسن حاج الصافي
د. حسن على عيسى

توجه المراسلات باسم رئيس التحرير: كلية الآداب جامعة الخرطوم. ص. ب ٣٢١

أو ترسل على البريد الإلكتروني: adabsudan@gmail.com

المحتويات

القسم العربي

معاني الواو ودلالاتها في اللغة العربية. د. رابعة الطيب عبد الرحيم أحمد..... ١

أبنيةُ المُشتقَّات في قصيدةِ مُتمِّم بنِ نُويرةَ (أُمّ المراثي) (دراسة صرفيَّة دلاليَّة). د. منى إدريس محمَّد مالك ٣٩

نسق الائتمانية ومرتكزاته الفكرية (قراءة في مشروع طه عبد الرحمن الفلسفي). د. أمل عوض الكريم محمد سعيد القرشي..... ٦٩

صورة إفريقيا في أدب الشاعر الروسي نيكولاي غوميليوف. د. سعاد شريف زين العابدين..... ٩٧

توظيف الموارد السياحية في السودان. د. علي محمد عثمان العراقي..... ١١٧

مسارات التطور الثقافي في السودان في عصور ما قبل التاريخ (٢). آفاق العصر الحجري الوسيط الثقافية وصناعاته. أ.د. أزهري مصطفى صادق..... ١٦١

القسم الأجنبي

The Funerary Finds from the Post-Meroitic Period in the Fourth Cataract – Sudan. Prof. Gamal Gaffar Abbass ELHassan…… 217

Le héros quêteur et le héros victime à travers le Petit Poucet de Charles Perrault. Dr. Lubna Ahmed Eltayeb……. 249

Problématique de la graphisation des langues soudanaises : cas du Four au Soudan. Mahmoud Adam Daoud…… 271

Phobias and its Relation to some Variables among Women Attending Traditional Healers in Khartoum State. Enaam Mohamed Kheir Mohamed Boshara……... 287

قواعد النشر وشروطه

آداب مجلة علمية محكمة تصدر في يناير ويوليو من كل عام عن كلية الآداب جامعة الخرطوم وتقبل البحوث في مجالات الآداب والفنون والعلوم الإنسانية مع مراعاة الآتي:

١. ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد نشر أو قدم للنشر في مكان آخر.
٢. تخضع البحوث المنشورة في هذه المجلة للتحكيم العلمي الذي يتولاه أساتذة مختصون وفق ضوابط موضوعية.
٣. تسلم نسختان مطبوعتان من البحث على معالج نصوص (حاسوب) مع أسطوانة مدمجة تحتوي على البحث. أو ترسل على البريد الإلكتروني adabsudan@gmail.com.
٤. يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين ٣٠٠٠-٥٠٠٠ كلمة، ويرفق الباحث مستخلصاً باللغتين العربية والإنجليزية لبحثه بما لا يتجاوز صفحة واحدة (٢٠٠) كلمة، ويذيل هذا المستخلص بما لا يزيد على خمس كلمات مفتاحية تبرز أهم المواضيع التي يتطرق إليها البحث. ويراعى أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على عنوان البحث واسم الباحث، والجامعة أو المؤسسة الاكاديمية وعنوان البريد والبريد الالكتروني باللغتين العربية والإنجليزية.
٥. تنشر المجلة مراجعات الكتب بحدود (٢٠٠٠) كلمة كحد أقصى، على ألا يكون قد مضى على صدور الكتاب أكثر من عامين، ويدون في أعلى الصفحة عنوان الكتاب واسم المؤلف ومكان النشر وتاريخه وعدد الصفحات. وتتألف المراجعة من عرض وتحليل ونقد، وأن تتضمن المراجعة خلاصة مركزة لمحتويات الكتاب. مع مراعاة الاهتمام بمناقشة مصداقية مصادر المؤلف وصحة استنتاجاته.
٦. أن يوثق البحث علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في نهاية البحث. وترتب المراجع في نهاية البحث هجائياً على ألا تحتوي قائمة المراجع إلا على تلك التي تمت الإشارة إليها في متن البحث. يشار إلى جميع المصادر في متن البحث كالطريقة التالية (اسم العائلة. سنة النشر. الصفحة او الصفحات) مثال: (صادق. ٢٠٢١. ١٤) (Adams. 2000. 14). وتوثق في قائمة المراجع والمصادر كما يلي:

للكتب وبحوث المؤتمرات:

- أحمد بدوي. **أسس النقد الأدبي عند العرب**. القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٤م.

للمقالات والفصول في الكتب:

- قاسم المومني. "علاقة النص بصاحبه دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية". **عالم الفكر**. الكويت: العدد الثالث يناير/ مارس ١٩٩٧م. ١١٣-١٢٨.

يراعي في المراجع الأجنبية نفس النمط

٧. تعبر البحوث التي تنشرها المجلة عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو أية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث.
٨. لهيئة التحرير الحق في إدخال التحرير والتعديل اللازمين على الأبحاث. وتعد هيئة التحرير رأي محكم المقال نافذاً بالنسبة لنشر البحث أو عدمه أو إدخال التعديلات التي يوصي بها المحكم.
٩. لا تقبل البحوث والدراسات التي تعد لإكمال مطلوبات إجازة الرسائل الجامعية (الدكتوراه).
١٠. لهيئة التحرير الحق في رفض أي بحث مقدم لها دون إبداء الأسباب.

صورة إفريقيا في أدب الشاعر الروسي نيكولاي غوميليوف

د. سعاد شريف زين العابدين

أستاذ مشارك بقسم اللغة الروسية

كلية الآداب-جامعة الخرطوم

المستخلص

يتناول موضوع هذه الدراسة صورة إفريقيا في الأدب الروسي مركزة على أدب الشاعر نيكولاي غوميليوف وهوأكثر من كتب عن إفريقيا من الكُتَّاب الروس.كانت صورة إفريقيا في أدب من سبقوه صورة القارة المظلمة المتخلفة تستند على كتب الجغرافيين الأوربيين. أُغرم الشاعر بإفريقيا قبل أن يراها وحلم بأن يرى بلادا غريبة لم تطأها قدم إنسان من قبل وحقَّقَ حلمه بأن قام بأربع رحلات إلى إفريقيا فزار مصر وشمال السودان والحبشة والصومال وجيبوتي.أنتجت هذه الرحلات أدباً رائعاً تمثل في أشعاره ومذكراته التي أصبحت مرجعاً للشعراء والكتّاب الروس. اعتمد الشاعر في تصويره لإفريقيا على مشاهداته الحية ومَزَجَها بخياله الشعري.

Abstract

The subject of this study deals with the image of Africa in Russian literature ،focusing on the literature of the poet Nikolai Gumilyov ،most of the Russian writers who wrote about Africa in his books. The image of Africa in the literature of his predecessors was the image of the dark backward continent and was based on the books of European geographers. The poet was in love with Africa before he saw it ،and he dreamed of seeing a strange country that no human foot had reached before. He fulfilled his dream by making four trips to Africa ،visiting Egypt ،Northern Sudan ،Abyssinia ،Somalia and Djibouti. Those trips produced wonderful literature represented in his poems and memories ،which became a reference for Russian poets and writers. In his depiction of Africa ،the poet relied on his vivid observations and mixed them with his poetic imagination.

مقدمة:

كان الروس يعرفون إفريقيا منذ زمن بعيد لكن معلوماتهم عن القارة السوداء كانت غامضة ومرتبطة بقصص الإنجيل. ظهرت أولى الكتابات عن إفريقيا في روسيا في القرن الخامس عشر فقد أُشير إلى إفريقيا إشارةً عابرة في قصة "السير وراء البحار الثلاث" التي كتبها تاجر وجاسوس روسي يُدعى أفاناسي نيكيتين كان قد قام بزيارة قصيرة إلى ساحل الصومال أثناء عودته من الهند. اتسمت الأعمال اللاحقة للكُتَّاب الروس عن إفريقيا بالوصف الجغرافي الذي استند على مؤلفات الكُتَّاب الأجانب وكان يخلو من العناصر الفنية ففي الربع الأول من القرن الثامن عشر كان المصدر الوحيد للتعرف على إفريقيا في روسيا هو الخرائط والكتب الأجنبية التي تُرجمت ونُشرت باللغة الروسية. في هذه الكتب تُوصف إفريقيا بأنها "مكان أسود فظيع وقذر". ظلت هذه الصورة متداولة في كتب الجغرافيا الروسية لمدة طويلة تقارب المائة سنة. في القرن التاسع عشر تكثَّفت الدراسات الجغرافية الروسية لإفريقيا فتوالت الاستكشافات والبعثات الرسمية الروسية لكل أنحاء إفريقيا فوصلوا إلى شمال إفريقيا و منابع النيل والسودان والحبشة واتسمت هذه الرحلات بطابعٍ معرفيٍّ وسياحيٍّ وخدمت أهدافاً علمية واقتصادية وشارك فيها الأثرياء والعلماء ومحبو الاستطلاع ونُشرت انطباعاتٍ عن هذه الرحلات في الدوريات الروسية وفي كتب منفصلة.

إفريقيا في مؤلفات الكُتّاب والشعراء الروس

أول من أرسى تقاليد الكتابة عن إفريقيا في الأدب الروسي هو الشاعر الكبير إلكساندر بوشكين ولا غرابة في ذلك فالشاعر ينتمي لإفريقيا من جهة جَدِّه لأمه إبراهيم هانيبال وقد رسم صورة ثابتة لإفريقيا كبلاد نائية وحرة وغريبة ورومانسية متناقضة مع روسيا، يقول بوشكين في ملحمة "يفغيني أونيغين":

حان الوقت كي أترك هذا الشاطئ المضجر

فأنا أبتغي العفوية الفوضوية

وأحب أن أقف وسط تموجات النهار

تحت سماء بلدي إفريقيا

أنشأ بوشكين أسلوباً لوصف إفريقيا يعتمد على الوصفين الجغرافي والتخيلي مستخدما الأسلوب الرومانسي الذي يعتمد على المقابلة بين العالم المرغوب فيه، والعالم المجهول لذلك فإن الشاعر لا يهتم بواقع الحياة في إفريقيا بقدر اهتمامه بذلك التصور الذي وضعه الرومانسيون عن إفريقيا القائم على الأساطير.

ذُكرت إفريقيا في مؤلفاتِ عدةِكُتَّاب وشعراء روس مثل ميخائيل ليرمونتوف وغونتشاروف وغيرهم لكن ظلت الكتابة عن إفريقيا في الأدب الروسي قليلة بسبب عدم دخول إفريقيا في دائرة الاهتمامات والطموحات السياسية لروسيا آنذاك وبسبب بُعد القارة الإفريقية عن روسيا وصعوبةالوصول إليها فحلّت الكتابة عن منطقة القوقاز والشرق الأدنى محل الكتابة عن إفريقيا.

زاد اهتمام الشعراء والكتاب الروس بإفريقيا بعد الأحداث التي وقعت في القارة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث كانت تدور حرب البوير في أقصى جنوب القارة وقد أحدثت هذه الحرب أثراً غير عادي في روسيا وشارك فيهاكثير من المواطنين الروس مشاركة فاعلة فاخذت الكتابة عن إفريقيا تتناول موضوعات معينة فبعض الكتاب صور إفريقيا جنة مفقودة وأرضاً للعجائب ففي قصة الكاتب أركادي أفيرتشينكو "موت صياد أفريقي" تقول إحدى شخصيات الرواية:"إنّ والديّ كانا يعيشان في سيباستوبل، الشئ الذي لم أكن أفهمه ذلك الوقت لماذا يعيش الناس في سيباستوبل بينما توجد جزر الفليبين وشاطي إفريقيا الجنوبي ومدن المكسيك الحدودية ومروج أمريكا الشمالية الفسيحة ورأس الرجاء الصالح والنهر البرتقالي ونهر الزامبيزي؟" (أفيرتشينكو، ١٩٩٠، ٥) هذه الصورة يعرضها الكاتب أ. زامياتين في قصته "إفريقيا"(١٩١٦) بأسلوب رفيع يقول فيها: " إن الغلال في إفريقيا تنبت بنفسها على الأشجار لا على الأحواض من غير حاجة إلى إزاحة الأحجار أو حرث الأرض أو حرق الحشائش وفي تلك البلاد تزهر الأزهار التي لا تستطيع التوقف عن شمها من طيب رائحتها"(زامياتين، ٢٠٠٣، ٣٣١)

كما صور بعض الكتاب الروس إفريقيا رمزاً للوحشية والتخلف والفقر مقارنين بين روسيا وإفريقيا في هذا الوصف وكانت هذه المقابلة ذات وجهين فإمَّا أن تكون انتقاصاً لروسيا ووصفها بأنها مثل إفريقيا في الجهل والعزلة، أو العكس بوصف تخلف وبدائية إفريقيا مقارنة بروسيا المتحضرة وقد وصف ماكسيم غوركي في قصته "اعتراف"إفريقيا بالجحيم وبالمكان الذي يُحكم فيه على الزنادقة بالعذاب، فتقول إحدى شخصيات الرواية:" وأنتم أيها الزنادقة اذهبوا إلى

الحبشة، إلى إفريقيا وإلى الأحباش حيث ستختنقون هناك من الحر وأنتم أحياء".(غوركي، ١٩٥٠، ٣١٤)

في العهد السوفيتي ظهر تصور جديد لإفريقيا يُعرِّفها بالمكان الذي سوف تدور فيه المعركة القادمة، بين الإمبريالية والرأسمالية من جهة، والشيوعية والبروليتاريا من الجهة الأخرى، يتضح هذافي ملحمة ب.كورنيلوف "بلادي إفريقيا" (١٩٣٩)

أكثر من تطرق إلى موضوع إفريقيا في أدبه من الشعراء والكُتَّاب الروس هو الشاعر نيكولاي غوميليوف الذي ارتبط مصيره وحياته ارتباطاً كبيراً بإفريقيا فقد قام بأربع رحلات إلى إفريقيا أثَّرت تاثيرا عظيما في أدبه فكتب عنها أشعاراً ومقالاتٍ توثيقيةًكثيرةً.

نبذة عن حياة الشاعر نيكولاي غوميليوف

ولد الشاعر نيكولاي غوميليوف في الثالث من أبريل سنة ١٨٨٦ في مدينة كرونشتاد حيث كان أبوه يعمل ضابطا بالبحرية. انتقلت أسرته إلى منطقة"تسارسكوسيلو" بعد ان سُرّح والده من الخدمة العسكرية حيث قضى غوميليوف سنوات طفولته الأولى فيها ودرس في مدرستها وهناك تعرَّف على الشاعرة آنا أخماتوفا التي تزوجها فيما بعد وأهداها أشعارا كثيرة.

عندما بدأ غوميليوف مسيرته الأدبية كانت المدرسة الرمزية مزدهرة فتأثَّر بالرعيل الأول من الشعراء الرمزيين الروس مثل ك.د. بالمونت وف.ب. بريوسوف أكثر من تأثُّره بمعاصريه من الرمزيين، وظهر أثر هذه المدرسة في أشعاره. في سنة ١٩٠٥ نشر أول ديوان شعر له وهو "طريق الفاتحين".

أسَّسَ غوميليوف جماعة سماها "جماعة الشعراء" تضم خمسة عشر شاعرا، أبرزهم غوميليوف وآنا أخماتوفا وأوسيب ماندلستام. في الاجتماع الثالث للجماعة دعا غوميليوف إلى تأسيس مذهب أدبي جديد يواجه غموض المدرسة الرمزية. سُمِّيَ المذهب الجديد بالمذهب "الذروي" يرجع أصل هذه التسمية إلى كلمة يونانية قديمة "acme" وتعني الذروة أو الكمال.أعجب غوميليوف بهذا الاسم فسمَّى به المذهب الأدبي الجديد "Acmeism" أو "الذروية" وبنى الأسس النظرية له على تجربته الشعرية الخاصة. سعت هذه المدرسة إلى إحياء الكلاسيكية

والعودة إلى الوضوح الجميل وازدهرت في الفترة بين١٩١١-١٩١٢وأصدر غوميليوف مجموعة شعرية باسم "سماء غريبة" ظهرت فيها ملامح هذا المذهب بوضوح.

في ٣ اغسطس ١٩٢١ اعتقل غوميليوف بسبب تهمة كاذبة وهي المشاركة في مؤامرة لقلب نظام الحكم وأُعدم رميا بالرصاص في ٢٤ اغسطس من العام نفسه.

غوميليوف و إفريقيا:

كان غوميليوف يحلم منذ الصغر أن يعيش حياة غير التي كان يعيشها في أوروبا، ويحلم بالسفر إلى بلاد مختلفة تماما عن بلده وهي إفريقيا وعن ذلك يقول:

لا يعجبني عزف الجيتار

بل تعجبني أصوات الأبواق المتوحشة

ويعجبني أن أكون مثل ذلك العربي الذي يهوي على الماء وهو يشرب

عبَّر الشاعر عن شغفه بإفريقيا في رسالة أرسلها إلى الشاعر بريوسوف بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٠٨ كتب فيها:" أنا أفكر في الذهاب للحبشة وقضاء نصف سنة فيها كي أعثر على كلمات جديدة في أرض جديدة" (غوميليوف، ٢٠٠٧، ١١٧) وقد كتب كثير من أصدقاء غوميليوف في مذكراتهم عن رغبته الغريبة بالسفر إلى البلاد الخرافية الفريدة وعندما كان طالباً في المدرسة كان يشتعل بالرغبة في "إيجاد تلك البلاد التي سيكفُّ عن البكاء فيها" وكان يعني إفريقيا بذلك، وقد ذكرت أستاذته في المدرسة إيرينا أوديوتسيفا في مذكراتها عن غوميليوف أنها عندما طلبت من الطلاب أن يذكروا شجرتهم المفضلة أجاب غوميليوف" التبلدي"(ادويفتسيفا، ٢٠٠٩. ٦٨). وكان السبيل إلى تلك البلاد هي مدينة باريس التي وصلها غوميليوف عام ١٩٠٦ والتحق بكلية القانون في جامعة السوربون.

زاد ولع الشاعر بإفريقيا أثناءإقامته بباريس فقد قرأ عنها باللغة الفرنسية وشاهد اللوحات المرسومة لها مثل لوحات مانيس وبيكاسو فظهرت الرموز الإفريقية لأول مرة في ديوان شعره "زهور رومانسية" فنجد مثلا في هذا الديوان قصائد باسم "الضبع" وعروس الأسد" و"الزرافة"

و"وحيد القرن" و "بحيرة تشاد". هذه القصائد هي حكايات مسلية عن تلك البلاد الغامضة، وصف فيها غوميليوف القارة الإفريقية وصفاً مختلفا عن الوصف التقليدي الشائع آنذاك ولم يكن الشاعر قد زار هذه القارة بعد، ولم يقم بالصيد في غاباتها الاستوائية رغم ذلك فإن غوميليوف كان يفتخر بقصائده الإفريقية الأولى، يدل على هذا خطابه الذي أرسله إلى ف. بريوسوف بتاريخ ٦ ديسمبر ١٩٠٧ من باريس ويقول فيه: " لديَّ ثلاث قصائد تتناول موضوعات إفريقية. اثنتان منهماقصيدة "الزرافة" وقصيدة "وحيد القرن" كما تعلم، أرجو منك أن تقترح عليّ إحدى المجلات التي يمكن أن أنشرها فيها جميعها "(غوميليوف، ٢٠٠٥، ٧٥)

شعر غوميليوف بالملل أثناء دراسته في جامعة السوربون وأراد أن يذهب إلى إفريقيا حتى يرى بعينيه بلاداً جديدة وأناساً مختلفين لكن والده عارض هذه الرغبة الغريبة ورفض أن يعطيه مالاً كي يسافر فأصرّ غوميليوف على السفر إلى إفريقيا؛ ولأن مصر هي أقرب بلد إفريقي يمكن أن يصل إليه من فرنسا زارها سنة ١٩٠٧ ومكث فيها ستةأسابيع في القاهرة والإسكندرية فعشق إفريقيا عشقاً أبدياً بعد هذه الرحلة. ثمّ قام برحلة ثانية إلى مصر سنة ١٩٠٨أطول من سابقتها، ومُعَدَّة إعداداً جيداً استطاع أن يحقق فيها حلمه القديم بصيد الوحوش المفترسة، ويؤكد ذلك خطابه الذي أرسله إلى ف. ك إيفانوفنا بتاريخ ٢٥ ديسمبر١٩٠٩ من القاهرة ويقول فيه:"كل يوم تراودني فكرة مرعبة لا أستطيع بالطبع تنفيذها فأنا أشعر بوحدة فظيعة لكن لم أستطع الصبر وخرجت للصيد. سأكون على حدود الصحراء خلال ساعتين أوأكثر حيث توجد الضباع" (غوميليوف، ٢٠٠٧، ١٤٠)

قام بعد ذلك برحلة ثالثة إلى الحبشة سنة ١٩٠٩ وفيها جمع موادا تراثية لمتحف بطرسبورغ ثم قام برحلة رابعة سنة ١٩١٣-وهي أهم رحلاته- رئيسا للبعثة العلمية التي أرسلتها الأكاديمية الروسية للعلوم لجمع بعض المواد الخاصة بالإثنيات في تلك المنطقة وسجل ملاحظاته عن تلك الرحلةبأسلوب شائق في "مذكرات إفريقية".أصبحت إفريقيا بعد هذه الرحلات حبه الكبير وملهمة أشعاره، فقد ملأت روحه بمشاعر جديدة وبهيجة وعزَّزت ثقته بنفسه وإحساسه بالتفرُّد كونه أول شاعر روسي يتوغل في تلك القارة السوداء ويكتب عنها أشعارا مبنية على مشاهدات حقيقية. ففي رسالة كتبها إلى صديقه الشاعر بريوسوف بتاريخ١٦ يناير ١٩١٠من جيبوتي يقول:" كما تعلم أنا الآن أكتب إليك من جيبوتي وغدا سوف أسافر متوغلا في عمق البلاد إلى أديس أبابا عاصمة منليك وسأقوم بالصيد في الطريق فهنا توجد جميع الحيوانات، حتى الأسود والأفيال. إنَّ

الشمس تسطع بلا رحمة والزنوج يمشون عرايا. إنها إفريقيا الحقيقية".(غوميليوف، ٢٠٠٧، ١٤٣) هذه الرسالة الأخيرة تُبدي فرح غوميليوف بتحقيق حلمه بالذهاب إلى مجاهل إفريقيا والصيد فيها.شكَّلت الرحلة المذكورة والأحداث التي تلتها أساسا لمؤلف غوميليوف "الصيد الإفريقي" الذي كتبه ونشره سنة ١٩١٤ في مجلة "نيفا" وهو مؤلف مهم؛ لأن غوميليوف جمع فيه انطباعاته عن رحلاته إلى الحبشة، وأكمل فيها ما بدأه في مؤلفه "مذكرات إفريقية" وقدلعبت النصوص التي كتبها غوميليوف عن إفريقيا دورا مهماً بعد موته المأساوي في تشكيل صورة إفريقيا في مخيلة الإنسان الروسي واثّرت في أجيال كاملة من الشعراء والكُتّاب في روسيا.

خطط غوميليوف بعد الحرب العالمية الأولى للعودة إلى إفريقيا وزيارة مدغشقر؛ لأن إفريقيا كانت تعيش في فكره وقلبه وتدعوه أن يزورها لكنّه لم يستطع تحقيق تلك الرغبة، وعن ذلك كتب أبياتاً يقول فيها:

يجب أن أسافر مرة أخرى

يجب أن أرى البحار والسحب

والوجوه الغريبة

عندما كتب غوميليوف عن إفريقيا أظهر نفسه لا ككاتب رحالة ولكن كباحث حقيقي، ففي البداية سافر كسائح عادي آملا أن يحصل على الهدوء الداخلي والسكينة، ولكن نظرته إلى إفريقيا كانت تتعمق وتتوسع في كل رحلة يقوم بها؛ لذلك فإن تصوره الضبابي عن إفريقيا الذي يبدو في مؤلفاته الأولى"الزهور الرومانسية و"جنّي الغابة" أصبح شيئا فشيئا يأخذ شكلاً دقيقاً واضحاً في كل نص جديد وقدكتب غوميليوف عن رحلاته الإفريقية في أشعاره أكثر مما كتب في مؤلفاته النثرية، ففي مؤلفاته التوثيقية عن إفريقيا مثل"الصيد الإفريقي" و"مذكرات إفريقية" نجد أنّ كل شئ يضج ويتحرك دائما-الناس والحيوانات والنبات فالأحداث واقعية والشعور بالخطر هو شعور حقيقي، لكن في أشعارهي ختلف التصوير، تبدو إفريقيا غامضة وخرافية في أشعاره الأولى أما في أشعاره المتأخِّرة فيصورها موضوعاً للبحث والدراسة ممزوجاً بصور خيالية لا تمت بأي صلة لإفريقيا الحقيقية.نجد تفاصيل كثيرة وشائقة عن إفريقيا وسكانها في أعمال غوميليوف التوثيقية والشعرية.

صور غوميليوف إفريقيا في أشعاره وكتاباته تصويرا متعددا يمكن تلخيصه في الجوانب التالية:

- تصويره لها ككاتب رحال يحكي بالتفصيل في مذكراته ورسائله عن الأشياء التي حدثت له، فكثير من أشعار غوميليوف ومؤلفاته النثرية التي كتبها عن إفريقيا تتسم بسمات أدب الرحلات؛ لأنها كتبت بناءً على وقائع رحلات حقيقية تتوافق مع الصورة الحقيقية لها، وفيها وصف تفصيلي عن الشعوب الإفريقية وحياتهم اليومية. كما أن ضمير المتكلم "أنا"الذي يشير للشاعر والكاتب يتكرر كثيرا في مؤلفاته. لا يكتفي غوميليوف بوصف رحلاته وصفا حقيقيا لكنه يمتلك نظرة ذاتية موضوعية لما شاهده. كان أدب الرحلات قبل غوميليوف يُكتب في شكل نصوص نثرية لكن استطاع غوميليوف أن يصف رحلاته في نصوص شعرية؛ لأنه كان يعتقدأنه من المستحيل وصف العالم الحقيقي بدقة وموضوعية لذلك لجأ إلى استخدام الصور الخيالية في شعره.

- تصويره كصياد محارب يمتلك خيالاً كأبطال القصص التي قرأها في شبابه الأبطال الذين يرتحلون كثيرا إلى بلاد غريبة وعجيبة ويتعطشون للقيام بمغامرات خطيرة لكي ينالوا إعجاب مجتمعاتهم ببطولاتهم.

- تصويره كباحث متخصص في الإثنيات ومهتم بدراسة الأساطير والتراث والثقافة الإفريقية.

- تصويره كشاعر مهاجر يؤلف أشعارا وقصصاً مدهشة عن إفريقيا فقد كان غوميليوف يعتقد أنه لكي تدهش الناس يجب ألا تكتفي بتأليف أشياء غريبة عن البلاد الغريبة بل عليك أن تقوم بالرحلات الخطيرة لكي تعبر عنها تعبيرا حقيقيا. زار غوميليوف تلك البلاد الغريبة ورأى بنفسه بلادا وشعوبا أخرى تتميز بعادات وأزياء مختلفة واستمع إلى أغاني القبائل البدائية وصلواتهم، وكل هذا ترجمه في شعره.

سجل غوميليوف في عدد من مؤلفاته مشاهداته في إفريقيا وكتب ملاحظات قيمة تعطينا تصورا للوضع السياسي والاجتماعي والثقافي لبعض البلاد الإفريقية في ذلك الوقت خاصة الحبشة التي خصها بقسم كبير من كتابته؛ لأنها كانت محط القسم الأكبر من رحلاته إلى إفريقيا وزار مناطق كثيرة فيها. تشمل هذه المؤلفات "مذكرات إفريقية" و"الصيد الإفريقي" وديوان "الخيمة" وبعض الأشعار والمقالات والقصص المتفرقة مثل المجموعة القصصية "ظل النخيل" ومقال "هل مات

منليك؟" وغيرها. سنتناول باختصار ثلاثةً من هذه المؤلفات وهي "مذكرات إفريقية" و"الصيد الإفريقي" وديوان "الخيمة"

مذكرات إفريقية

"مذكرات إفريقية" هي سلسلة مشاهدات سجلها غوميليوف لرحلته الرابعة إلى إفريقيا كتبها سنة ١٩١٣ وكان ينوي نشرها بعد رجوعه إلى بطرسبورغ ولكن واجه صعوبة في ذلك فطُبعت مجتمعة في مجلة "ناشي ناسليدي" سنة ١٩٨٨ في شكل مقالات. يمكن اعتبار هذه المذكرات وثيقة تاريخية فريدة ذات طابع سردي ينتمي إلى أدب الرحلات.

تحوي هذه المذكرات أربعة فصول، الجزء الثاني منها يغلب عليه الطابع التوثيقي والتأريخي إلا إننا نجد فيها حوارا أدبيا ويمكن أن تنتمي إلى أدب الرحلات حيث يقوم الكاتب فيها بدور الرحالة والراوي في آن واحد، فنجد أن الفضاء الواقعي فيها يقف مواجها للفضاء الخيالي وللعالم الروحي للكاتب، والعالم الغرائبي يلتقي مع التجارب الحية، وقد نُشرت هذه المذكرات في الأقسام الأدبية للمجلات مما يؤكد الطابع الأدبي لها.

في هذه المذكرات يركّز غوميليوف الحديث عن أهم رحلاته وهي الرحلة الأخيرة وتختلف عن سابقاتها التي قام بها بدافع الفضول والمغامرة واستكشاف بلاد جديدة وغريبة فقد قام بتلك الرحلة مُبتعثاً من أكاديمية العلوم للقيام بمهمة علمية محددة وهي التقاط صور وجمع مواد إثنوغرافية وتسجيل الأغاني والأساطير المحلية وقد أضاف إلى ذلك جمع حيوانات محنَّطة. استطاع غوميليوف في هذه الرحلة ان يتأمَّل ويفكر ويحلل بدقة ما شاهده ويوازن مشاهداته وانطباعاته بمشاهداته في الرحلات السابقة. كان لدى غوميليوف هدف خاص من هذه الرحلة وهوإيجاد مصادر جديدة لإلهامه الأدبي وكتابة مذكرات عنها ونشرها فيما بعد. استغرقت الرحلة الأخيرة أكثر من أربعةأشهر وكان خطُّ سيرها: من مدينة بطرسبورغ في روسيا إلى ميناء أوديسا في البحر الأسود ومنها إلى ميناء بورسعيد ثم ميناء جدة ومنها إلى ميناء جيبوتي ثم إلى ديرداوا بالقطار ومنها إلى هرر على ظهر البغال.

سجل غوميليوف ملاحظات مهمة عن رحلته هذه في مذكراته من ذلك وصفه لميناء جيبوتي الذي كتب عنه:" تقع جيبوتي على الساحل الشرقي لخليج عدن جنوب مدينة أوبوك في ناحية خليج

كاجوراء. في معظم الخرائط نجد أن أوبوك فقط هو المذكور لكن الآن فَقَدَ هذا الميناء أهميته ويعيش فيه فقط الأوربيون المصرّون على البقاء فيه، ويقول البحارة: -وهم مُحقّون- إن هذه المدينة قد ابتلعتها جيبوتي فالمستقبل لها، والتجارة تزدهر فيها ويزداد عدد السكان الأوربيين فيها فعندما زرتها أول مرة قبل أربع سنوات كان عدد السكان الأوربيين فيها ثلاثمئة والآن عددهم أربعمئة وستتطور هذه المدينة عندما يكتمل إنشاء خط السكة حديد الذي يربطها بعاصمة الحبشة أديس أبابا حينها ستتفوق على ميناء مصوّع. (غوميليوف، ٢٠٠٥، ٧٨). تحققت توقعات غوميليوف وأصبحت مدينة جيبوتي عاصمة دولة جيبوتي الحديثة ومن أهم الموانئ في إفريقيا.

لاحظ غوميليوف النمو السريع لمدينة دير داوا التي كان يوجد بها طريق يربط بين ميناء جيبوتي والمناطق الوسطى للحبشة وعن ذلك كتب:"تطورت دير داوا تطورا عظيما في السنوات الثلاث التي لم أرها خاصة الجزء الأوربي فيها. أذكر أنَّه كان يوجد فيها شارعان فقط، أما الآن فيوجد بها عشرة شوارع وحدائق وأزهار ومقاهٍ فسيحة كما يوجد بها قنصل فرنسي"(نيكولاي غوميليوف، ٢٠٠٥، ٨٤)

لعبت مدينة هرر دورا مهما في رحلات غوميليوف للحبشة فقد مكث فيها زمناً طويلاً وكان يرى أنَّها أهم من جيبوتي وأديس أبابا فكتب عنها:"تشبه هرر من الداخل مدينة بغداد في عصر هارون الرشيد بشوارعها الضيقة المرتفعة في بعض الأماكن والنازلة في بعضها وبأبوابها الثقيلة وبساحاتها التي يضج فيها الناس الذين يلبسون ثيابا بيضاً، وبمحكمتها الموجودة في الساحة" (نيكولاي غوميليوف، ٢٠٠٥، ٨٨).

أكثر ما أعجب غوميلوف في مدينة هرر هو التنوع العرقي والثقافي، ووقوعها في ملتقى طرق للمدن الأخرى وأيضا بسبب أن الشاعر الفرنسي آرثر ريمبو الذي أعجب به غوميليوف كثيرا، كان من أوائل الأوربيين الذين وطأت أقدامهم هذه المدينة وارتبط اسمه بها (غوميليوف، ٢٠٠٥، ٩٥).

من أهم الأحداث التي مرَّت بغوميليوف أثناء وجوده في الحبشة هو لقاؤه بشخص مهم أثار اهتمام كثير من الباحثين الأوربيين وأصبح فيما بعد إمبراطور الحبشة لأربع وأربعين سنة وهو الإمبراطور هيلا سلاسي الذي حكم إثيوبيا من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٧٤.

التقى غوميليوف بهيلاسلاسي عندما كان يشغل منصب القائد العام لمدينة هرر والمناطق المحيطة بها وكانوا يطلقون عليه ذلك الوقت اسم تافاري ماكونين وكان عمره واحداً وعشرين سنة وعرف أن هذا الشخص مهم بسبب انحداره من سلالة الملك سليمان؛ ولأنه ابن عم الملك منليك حاكم الحبشة آنذاك كما أن زوجته هي حفيدة الإمبراطور وابنة ولي العرش.كان لهيلاسلاسي قصر في كل مقاطعة في البلاد، وذهب غوميليوف إلى قصره في هرر لأخذ إذن بالتحرك في كل مناطق الحبشةوقد وصف غوميليوف لقاءه بهيلا سلاسي قائلا:" نهض القائد وصافحنا، وكان يلبس الشاما مثل كل الأحباش ولكن من وجهه المستطيل الذي تحيط به لحية سوداء مجعدة ومن عينيه الواسعتين المشعتين بالهيبة اللتين تشبهان عيون الغزلان، وفي كل سماته يمكنك أن تخمّن للتو أنه أمير"... طلبنا من الحاكم أخذ صورة فوتوغرافية معه فوافق في الحال فعدنا بعد أيام ومعنا أجهزة التصوير. فرش الحراس بساطاً في الفناء فالتقطنا صورة للحاكم بملابس زرقاء زاهية (غوميليوف، ٢٠٠٥، ٩٤).

هذه الصور التي ذكرها غوميليوف تُعدُّ من أقدم الصور التي التقطت للإمبراطور هيلا سلاسي، لكن لم يُعْثَر عليها بعد. وصف غوميليوف تيفيري ماكونين أو هيلاسلاسي بأنه رقيق غير حازم كما ذكر أنه أنشأأول مسرح في إثيوبيا في هرر ودعا إليه الممثلين الهنود المتجوّلين وقد شاهد غوميليوف عرضاً مسرحياً فيه، ووصفه بالتفصيل في مذكراته.

وصف غوميليوف قبائل إثيوبيا في مواضع كثيرة في مذكراته فقال عن شعب الأمهرا الأكثرعددا:"سكان غندار وشوا من العرق الحبشي النقي وعددهم من ستة إلى سبعة ملايين ومعظمهم يعتنقون الأرثوذكسية ويتصفون بالشجاعة والثبات في القتال، فهم الذين هزموا الطليان ويتصفون أيضا بقوة التحمل والصبر على الحرمان ويستطيع الواحد منهم ان يسبق حصانه بمسافة ثلاثين كيلو متر ويفعل هذا لمدة أسابيع ويحمل ما يكفيه لمؤونته فقد اعتادوا على تحمل المناخ القاسي؛ لأنهم يسكنون الجبال."(دافيدسون، ١٩٨٨، ٦٦٨).

وكتب عن قبيلة الجالا أنهم يتصفون بصفات الأمهرا نفسها زائدا عليها القامة الفارعة والبنية القوية.أما عن قبائل الدانيكال والصوماليين فوصفهم بأنهم شجعان ومحاربون وماكرون.ويقول أيضا عن الصوماليين:"يمتلك الصوماليون ذوقا مشهورا في زخرفة ملابسهم وأوانيهم وصياغة العقود والأساور وهم تجار الموضة للقبائل المجاورة لهم، لكن أغانيهم لا تقارن بأغاني الأحباش التي تتميز باليسر والسهولة، ولا بقصائد الجالا الرقيقة"(غوميليوف، ٢٠٠٥، ٨٠) وقد سجل

غوميليوف كثيرا منً الأغاني المذكورة في مفكرته ورسمها بالحروف الروسية وكتب ترجمتها باللغة الروسية في ملحق منفصل. إحدى هذه الأغاني الحبشية التي ترجمها: أغنية تسمى "فتيات زنجبار" تقول بعض كلماتها:

وسافر الحبشي المسكين ببغلته الوحيدة

عبر الجبال عبر الغابات عبر السهوب

بعيدا بعيدا إلى الشمال

فهاجمه اللصوص فقتل منهم اربعة واختبا

وفي غابات سنار الكثيفة قتل الفيلُ الناسك بغلته

طلع البدر عشرين مرة ووصل هو إلى القاهرة

وتذكَّرأنه بلا مال

فقفل راجعا من حيث أتى

التقى غوميلوف أثناء سير القافلة بشخص يدعى شيخ حسين يعتقد الأحباش الجالا أنه ولي صالح وكانت هناك بغلة ضاعت في الطريق فذهبوا إلى الشيخ ليدلهم على مكانها وذهب معهم غوميليوف بدافع الفضول وسمع الناس يتحدثون عن بركات الشيخ وأنه قد حوّل بعض الأعداء إلى حجارة وأنه حرّك الجبل من مكانه القديم إلى مكانه الجديد الذي ارتحل إليه. كتب غوميليوف قصيدة طويلة اسمها "الجالا" تحدث فيها عن قبيلة الجالا وعن لقائه بشيخ حسين تقول بعض أبياتها:

رايت شيخ حسين الطويل

وهو ينحني للمسجد ولأشجار النخيل المقدسة

.....

كانت عيناه تلمعان بوحشية

انحنيت له فرد بابتسامة

وربت بلطف على كتفي

أهديته مسدساً بلجيكي

وصورة مليكنا

سألني عن أشياء كثيرة وهل يعرفونه في روسيا البعيدة المتوحشة

فشهرته كساحر تصل إلى البحار وأعماله جليلة

وكتب غوميليوف عن جولاته في أنحاء الحبشة لجمع المواد العلمية لمتحف الإثنوغرافيا :" بدأنا العمل في هرر، كنت أجمع المواد الإثنوغرافية، وكنت أستوقف الناس بلا خجل؛ لأنظر ما يلبسون وأدخل البيوت وأنظر إلى الآنية الموجودة بها واجهدت نفسي حتى أحصل على معلومات عن دلالة بعض الأشياء لدي الهرريين الذين لم يكونوا يفهمون شيئا مما أعمله وكانوا يضحكون عليّ عندما أشتري الملابس القديمة ولعنتني إحدى البائعات عندما حاولت تصويرها، وبعضهم رفض إعطائي الأشياء التي طلبتها منهم ظنا أنني أريد استخدامها في أعمال السحر.(غوميليوف، ٢٠٠٥، ٩٤)

شهدت أديس أبابا سنة ١٩١٧ اكتمال بناء خط السكة حديد وتحرك أول قطار فيها، وعن ذلك كتب غوميليوف:" مؤسف أن يمتلك هذا الطريق الفرنسيون المعروفون بعدم الحرص على مستعمراتهم ويعتقدون أنهم قد أدّوا واجبهم بإرسالهم بعض الموظفين الغرباء عن تلك البلاد الذين لا يحبونها "(غوميليوف، ٢٠٠٥، ٧٨) وقدأسهم هذا الطريق كما كتب غومليوف في مذكراته في تطور العلاقات التجارية بين الحبشة وجيبوتي.

"الصيد الإفريقي"

سجل غوميليوف في مقال "الصيد الإفريقي" مشاهدات ممتعة لرحلات الصيد التي قام بها في إفريقيا. بدأ مقاله بمقدمة كتب فيها:"إذا لم يصغ الأوربي إلى دعاوى المتشككين ومعظمهم من التجار الصغار في المدن الساحلية، وإذا لم يطع التحذيرات المشؤومة لقنصله، وإذا تمكن أخيرًا من جمع قافلة غير ضخمة، فيمكنه رؤية إفريقيا كما هي، وكما وجدت قبل ألف عام (غوميليوف، ٢٠٠٥، ١٠١)

يظهر غوميليوف في "الصيد الإفريقي" كالقاص والبطل الرئيس في الوقت نفسه، فيصور نفسه صياداً شجاعاً يقتل الفهود بلا رحمة ويأخذ جلودها معه إلى روسيا كتذكار لرحلته وهو فخور بهذه الطريدة فيكتب فيما بعد قصيدة يقول فيها"

الفهد الذي اصطدته يرقد في غرفتي

يقوم بأعمال سحر وكهانة

في الليالي الصامتة الموحشة

ليست هذه الأبيات من خيال الشاعر فقد كان جلد الفهد الذي اصطاده يرقد فعلا في غرفة نومه أمام سريره وكأنه قطعة سجاد كما حكت عن ذلك أ. ف أدويفتسيفا في مذكراتها عن غوميليوف. وحكت زوجته السابقة الشاعرة آنا أخماتوفا أن غوميليوف كان يلبس معطفا من جلد الفهد ويحوم به في شوارع سان بطرسبورغ في الشتاء وأنه أحضر من إفريقيا ببغاء جميلا، لونه رمادي فاتح، وصدره وردي. كما أنه ذهب أبعد من ذلك فأصبح يؤمن بخرافات الأحباش الخاصة بالصيد ومنها أنه إذا لم تقم بنزع شوارب الفهد بعد موته في الحال فسوف تقوم روحه بتتبع صائده أينما ذهب ويحكي عن ذلك في قصيدة "الفهد" التي يقول فيها":

هل ياتري سيصطادني ذلك الهتاف الغادر قبل الفجر

آه أنا لم أستمع للذين نصحوني بأن أنتزع شواربه

فات الأوان فهذه القوة المعادية انتصرت علي واقتربت مني

وهي تضغط على قفاي كأنّها يد نحاسية

يشير غوميليوف إلى انحيازه إلى إفريقيا في الجزء الأول من المقال الذي يصف فيه صيد سمكة القرش في البحر الأحمر فيؤكد أن البحر الأحمر هو جزء من إفريقيا فيقول:"لا شك أن البحر الأحمر هو جزء من إفريقيا والحديث عن صيد أسماك القرش في البحر الأحمر يعد مقدمة جيدة للحديث عن الصيد في إفريقيا"(غوميليوف، ٢٠٠٥، ١٠١) ثم يتحدث عن صيد سمكة قرش في ميناء جدة فيبدأ بوصف التجهيزات التي تسبق ذلك ثم يصف صيدها بالتفصيل حتى لحظة تقطيعها.

في الجزء الثالث يصف رحلة صيد نمر في إحدى القرى الصومالية قائلا:" ورأيت حيوانًا نافراً يقترب، بحجم كلب الصيد، كان يركض على أقدامه المنحنية، وأسقط بطنه على الأرض ولوَّح قليلاً بطرف ذيله، ولاحت في وجهه الذي يشبه وجه القطة المتوثّبة تعابير الثبات والتهديد. بدأ شكله قريباً جداً من شكله في الكتب والصور حتى أني من الوهلة الأولى خطرت لي فكرة متناقضة: هل ياترى هرب من إحدى عربات السيرك المتجول؟ سرعان ما خفق قلبي وتصلَّب جسدي من تلقاء نفسه، وأطلقت النار عليه كأنني أصطاد ذبابة" (غوميليوف، ٢٠٠٥، ١٠٣)

وعن صيد الأسد حكى قائلا:" إن قتل أسد هو الحلم الخفي لكل رجل أبيض يأتي إلى إفريقيا، سواء كان تاجر مطاط أو مبشراً أو شاعراً..... وفي أقصى المرج رأيت أسدًا أسود ومن ورائه شجيرات مظلمة قد خرج من الغابة، ولاحظت عندها رأسًا ضخمًا مرتفعًا فوق صدره يغطيه كالدرع. في اللحظة التالية أطلقت النار، دوى صوت مسدس المازور عاليا وسط ذلك الصمت المطبق..... نسينا تعبنا، لقد طغى علينا جنون الصيد(غوميليوف، ٢٠٠٥، ١٠٦)

في الجزء الخامس والأخير يحكي غوميليوف عن رحلة صيد قام بها مع مجموعة من الأحباش انتهت بصيد ضبع وحيوانات أخرى. رغم الإثارة والمتعة التي شعر بها غوميليوف أثناء تلك الرحلات إلا أنه يختم مقاله بكلمات يعبر فيها عن ندمه وأسفه لقتله تلك الحيوانات فيقول:" انتهت حملة الصيد في الليل، وأنا مستلقٍ على حصيرة من القش، فكّرت لفترة طويلة لماذا لا أشعر بأي تانيب للضمير وأنا أستمتع بقتل تلك الحيوانات؟ بل إن ارتباطي بعالم الحيوانات قد ازداد قوة بعد

عمليات القتل تلك، وفي الليل حلمت أن رأسي قد قُطع بسبب مشاركتي في انقلاب في أحد قصور الأحباش، وكنت أنزف وأصفق لمهارة الجلاد وأفرح، وكأن ذلك الأمر كان هيناً وحسناً وغير مؤلم" (غوميليوف، ٢٠٠٥، ١٠٨)

ديوان "الخيمة"

كتب غوميليوف قصائد هذ الديوان سنة ١٩١٨ ونشرها سنة ١٩٢١ قبل وقت قصير من موته. يحتوي الديوان على ست عشرة قصيدة، موضوعها إفريقيا، وكلها تحمل أسماء إفريقية، وترتيبها كالآتي: مقدمة، البحر الأحمر، مصر، صحارى، قناة السويس، السودان، الحبشة، الجالا، شبه جزيرة الصومال، ليبيريا، مدغشقر، زامبيزي، دامارا، الغابة الاستوائية، داهومي، النيجر.

تختلف قصائد هذا الديوان عن سابقاتها التي كتبها عن إفريقيا في وقت مبكر من مسيرته الشعرية مثل قصائد "أغنيات حبشية" و"الزرافة"و"بحيرة تشاد" في أنها كتبت استناداً على تجارب حقيقية عاشها الشاعر أثناء رحلاته في إفريقيا لذلك فإنها تتصف بالواقعية رغم وجود نزعة رومانسية فيها. قصائد الديوان التسع الأولى هي نتاج لمشاهدات الشاعر الحقيقية في تلك البلاد أمَّا باقي القصائد فقد كتبها مستنداً على المعلومات الجغرافية والتأريخية التي اطلع عليها في الكتب فالشاعر لم يزر قط ليبيريا ولا مدغشقر ولا تشاد، وقد كتب أنوكينتي أكسيونوف عن هذا الديوان:" قصائد "الخيمة" قصائد انتظرها الناس طويلا من الشاعر، إنها ثمرة رحلاته إلى إفريقيا.فقصائد هذا الديوان مثل: الصومال وداهومي وليبريا والغابة الاستوائية هي قائمة متنوعة لأسماء جغرافية قد اكتست باللحم والدم تلعب أدواراً في مسرحيات أصيلة فنحن هنا أمام صورة معبرة عن إفريقيا.ربما أراد الشاعر بتسمية قصائده بتلك الأسماء الجغرافية أن يلفت انتباه القارئ لتلك الأماكن ويهيئه لاستيعاب الأحداث التي تدور فيها"(أكسيونوف، ١٩٢١، ٣١)

تناولت قصائد الديوان موضوعات شتى فنجد فيها مشاهدات حقيقية للشاعر ونجد وصفاً للطبيعة وللناس وللحيوانات ووصفا لشخصيات تأريخية حقيقية كما توجدفيها إشارات دينية.

أكثر الشاعر من استخدام أسلوب الإستعارة في قصائد الديوان كي يصور إفريقيا كمكان أسطوري وساحر ممتلئ بالأسرار والأخطار فوصف البحر الأحمر بأنه كأُذن سمكة القرش و أنّه حمام الزنوج ومرجل الرمال:

مرحباً بالبحر الأحمر. أُذن سمكة القرش

حمام الزنوج ومرجل الرمال

ووصف الحبشة ببلاد السحرة:

يا بلاد السحرة، أنت تختنقين في قاع جوفك

وفيك يتدفق الضياء من الأعالي

وغيرها كثير في قصائد الديوان. كذلك ورد ذكر لبعض الشخصيات التأريخية والدينية والأُسطورية المرتبطة بإفريقيا ما يبدي اطلاع الشاعر الواسع، ففي قصيدة "البحر الأحمر" يتحدث عن قصة عبور سيدنا موسى عليه السلام وفرعون للبحر فيقول:

أتذكر أنك أحد البحار القليلة

التي نفذت شريعة الرب

عندما شققت أمواجك الضخمة

كي يعبر موسى ويُقتل فرعون

وعن النبي سليمان والملكة بلقيس الذين يزعم ملوك الأحباش أنَّ سلالتهم تنحدر منهم يقول في قصيدة "الحبشة":

كان هناك عالم تحت أشجار الجميز يجادل الناس عن الرب

فأسرهم بأشعاره الشجية

فرسم الرسامون الملك سليمان

وهو واقف بين الملكة بلقيس والأسد

ويحكي الشاعر عن بطلين من أبطال جنوب إفريقيا الذين خاضا معارك شرسة ضد البريطانيين أثناء حرب البوير وهما دينغان، وتشاكا، فيقول في قصيدة "الزامبيزي":

وسيصرخ أبي دينغان:

نعم أنت لم تكن كلباً جباناً

بل كنت أسداً وسط الأسود الهاربة

لذلك اجلس بيني وبين تشاكا

في أريكة مصنوعة من جماجم البشر

يشغل عنصر الحيوان حيزاً كبيراً في كل أشعار غوميليوف لكنه يكثر من استخدام هذا العنصر في قصائده الإفريقية فنجدها تعج بالحيوانات الإفريقية كالأسود والضباع والفهود وغيرها، وليس هذا بغريب فالفلكور الإفريقي مبني على تصورات تؤمن بوجود علاقة وطيدة بين الإنسان والحيوان لذلك فإن بعض قصائد غوميليوف الإفريقية الأولى تحمل أسماء حيوانات مثل "الضبع"و"الزرافة"و"وحيد القرن" و"الجاكوار" وحتى القصائد التي لم تُسمَ بأسماء الحيوانات نجد أنّ الحيوان جزءاً أساسياً فيها، وفي ديوان الخيمة نجد عنصر الحيوان حاضراً في كل قصائده، فمثلا نجد الأفيال في قصيدة "البحر الأحمر":

وتقترب الأفيال من الشاطئ الصاخب
وترهف السمع لضجيج الأمواج الثائرة
عاشقة لضوء القمر المتكسر

ونجد الجمال في قصيدة "مصر":

تلك الجمال المضحكة
التي تبدو أجسامها كأجسام الأسماك ورؤوسها كرؤوس الأفعى

ونجد الأفاعي في قصيدة"الحبشة":

احذروا فهناك تتربص بكم أفعى البوا
وتختبئ الفهود والأسود ذات الشعر الأحمر

ونجد الثيران في قصيدة "الجالا":

وهربت الثيران وهي تصيح عندما رأتني

فهي لم تر أناساً بيضاً من قبل

ويتكرر ذكر الأسد في كثير من قصائد الديوان ففي قصيدة "السودان" يقول:

وفي عروش مصنوعة من العاج

يجلس ملوك وقواد السودان كالأوهام القديمة

وبقرب كل واحد منهم أسد،مكفهر الوجه مرفوع الرأس

أمّا التمساح فيوجد في قصيدة "النيجر":

وتماسيحك تحطم مسامير السفن

بضربة أذنابها القوية

نجد في هذا الديوان رموزا إفريقيةأخرى كثيرة غير التي ذُكرت يصعب حصرها في هذا البحث.

خاتمة

بدا اهتمام الأدباء الروس بإفريقيا منذ القرن الخامس عشر فصوروا إفريقيا التصوير السائد آنذاك كصورة القارة المظلمة المتخلفة التي يسكنها البدائيون والوحوش لكن تغيرت هذه الصورة بمرور الزمن بفضل بعض الكتاب والأدباء وأبرزهم الشاعر نيكولاي غوميليوف الذي زار بنفسه القارة الإفريقيةوتوغل في شرقها فأعطى صورة حقيقية مبنية على مشاهداته ومزجها بخياله الشعري فأنتج تحفا أدبية رائعة أصبحت أنموذجا يحتذى عن إفريقيا للأدباء الروس الذين أتوا بعده.

المراجع والمصادر

- أدويفتسيفا إيرينا، **على ضفاف نهر النيفا**، دار نشر "آست موسكو"، فلاديمير، ٢٠٠٩.
- إفيرتشينكو أركادي. **موت صياد افريقي**. دار نشر "برافدا"، ١٩٩٠.
- أكسيونوف إنوكينتي، "رسائل عن الشعر المعاصر"، **مجلة كنيجا ريفوليوتسيا**. ١٩٢١ العدد ١٣.
- دافيدسون أبوللون، "ربة شعر رحلات غوميليوف البعيدة"، مقالة في **مجلة "إفريقيا" الأدبية**، العدد ٩، دار نشر "خودوجيستفينيا ليتراتورا"، موسكو ١٩٨٨.
- زامياتين يفغيني. **المؤلفات الكاملة** في خمسةأجزاء الجزء الأول. موسكو. دار نشر "روسكايا كنيغا"، ٢٠٠٣.
- ستانيوكوفيتش قسطنطين، **قصص بحرية**، دار نشر "كنيغا أزداتيلوستفو".كراسنو دار ١٩٥٠.
- غوركي ماكسيم، **المؤلفات الكاملة** في ٣٠ جزء (إصدار حكومي)، الجزء الثامن، دار نشر "خودوجيستفينايا ليتيراتورا". موسكو ١٩٥٠.
- غوميليوف نيكولاي، **المؤلفات الكاملة** في عشرة أجزاء، الجزءالرابع (الأشعار والملاحم ١٩١٨-١٩٢١)، أكاديمية روسيا للعلوم، معهد الأدب الروسي (بيت بوشكين)، دار نشر "فوسكريسينيو"، موسكو ٢٠٠١.
- غوميليوف نيكولاي، **المؤلفات الكاملة** في عشرة أجزاء، الجزء السادس (النصوص النثرية-١٩٠٧-١٩١٨)، أكاديمية روسيا للعلوم، معهد الأدب الروسي (بيت بوشكين)، دار نشر "فوسكريسينيو"، موسكو ٢٠٠٥.
- غوميليوف نيكولاي، **المؤلفات الكاملة** في عشرة أجزاء، الجزء الثامن (الرسائل-١٩٠٧-١٩١٨)، أكاديمية روسيا للعلوم، معهد الأدب الروسي (بيت بوشكين)، دار نشر "فوسكريسينيو"، موسكو ٢٠٠٧

المو اقع الإلكترونية:

- موقع الإنترنيت الخاص بالشاعر نيكولاي غوميليوف www.gumilev.ru